الفصل الأول

"طفولة وحنان "

ولدت طفلة في دمشق السلام، فأشرقت الشمس بحلة غريبة عندما أتت هذه الشقية لهذا العالم، زقزقت العصافير وارتمت على الوديان ترسم قلوب صغيرة لتغطيها الفراشات باللون الأحمر، وتعبق منها الزهور الندية.

"ماسة" المدللة عند والدها ولكنها فقدت حنان والدتها المريضة التي تعاني من مرض القلب، بسبب أزمة وفاة ابنتها التي ولدت قبل "ماسة" رغم تحذير الأطباء لها بعدم الإنجاب مرة أخرى لأن حالتها ستتدهور، ولكنها أصرت على إنجاب "ماسة" التي تعلقت بها كثيراً ورسمت لها مستقبل مذهل بخيالها وحياة مشرقة تتمناها كل أم لابنتها.

شعرت الأم أن الله عوضها بـ "ماسة" عن ابنتها التي ماتت بعمر الأربع سنوات، فتعلقت بها كثيراً، وكانت تخاف عليها من كل شيء، تلاحقها بكل ما تفعل، تراقب تصرفاتها، والسبب خوف الأم من هاجس أن تفقد فلذة كبدها مرة أخرى.

أما الأب فيذهب في الصباح إلى عمله وهو حائر وعقله مشغول بزوجته المريضة وأولاده.

ذات يوم من الأيام اتصلت ابنته الكبرى لتخبره أن أمها قد أصيبت بجلطة، وأنها اتصلت بالإسعاف لنقلها إلى المشفى، ليركب الأب سيارته ويتجه مسرعاً إلى المشفى، وعند وصوله كانت زوجته داخل غرفة العناية المشددة فتحدث مع الطبيب:

- مرحبا دكتور أرجوك أعلمني ما هي حالة زوجتي "وهو مرتبك وحزين".
- أهلاً أهلاً اطمئن هي ليست بخطر كبير، ولكن علينا إجراء عملية في القلب وتغيير صمامين بأقصى سرعة لأن حالتها مزرية

وتحتاج للعملية الآن، أرجو أن تقدم موافقتك للاستعلامات وتوقع على الأوراق على الفور ودفع مبلغ مقدماً وإلا سوف تخسر زوجتك إلى الأبد.

- لا لا يا دكتور سأذهب فوراً أنا موافق "متوسلاً للطبيب" أنقذها يا دكتور أنا أعتمد على الله وعليك لتنقذ حياتها أرجوك.
- إن شاء الله هيا أسرع.

يذهب السيد "عبد الكريم" إلى الاستعلامات مسرعاً ويشاهد هناك ابنته "هديل" وهي تبكي بحرقة، تقف وهي منهارة تسند جسدها على الحائط، وعندما شاهدت والدها أسرعت إليه بخطى مندفعة لتحتضنه وهي تتألم من الحزن على والدتها.

قالت بصوت منخفض حزين:

- علينا أن نستعجل في إجراء العملية وألا خسرنا أمي.

- نعم سنجري لها العملية وبسرعة سأدخل لغرفة الاستعلامات وأتفق معهم، لا عليكِ كوني بخير وهدأي أعصابك سأعود إليكِ، قفي هنا وانتظري.

دخل السيد "عبد الكريم" لغرفة الاستعلامات واتفق معهم على إجراء العملية وبالسرعة القصوى، بينما وقفت "هديل" حزينة في أحد ممرات المشفى وهي تبكي وقلبها يتألم وتدعو الله أن ينقذ أمها، وعيناها تنظران إلى السماء التي بدأت الغيوم تحجب صفحتها، وأرعدت بتلك اللحظات وهطل المطر، وأحست "هديل" بالاطمئنان والأمل عندما شاهدت الأمطار التي تبشر بالخير والتفاؤل، وسكن قلبها بعض الشيء، وبعد مرور ساعة من الوقت دخلت والدة "ماسة" إلى غرفة العمليات و"هديل" ووالدها ينتظران بلهفة النتيجة في غرفة الانتظار فأتى "يامن" شقيق "ماسة" وهو منزعج جداً:

- مساء الخير أين والدتي؟

- مساؤك سعيد، والدتك في غرفة العمليات لماذا تأخرت كل هذا الوقت قبل أن تأتي إلى المشفى؟
- كان لدي عمل مهم.
- ولكن والدتك أهم، نريد بعض المال هل تملكه.
- نعم ولكن هي دين عليك يا والدي لأنني .... لأنني ....
- اصمت ليس الآن سنتحدث فيما بعد.
- حاضر حاضر...
- ويخرج الأب من الغرفة منزعجاً من ابنه ويذهب نحو غرفة العمليات
- ماذا جرى لك والدك لديه ضائقة مادية ووالدتك حالتها حرجة في غرفة العمليات وأنت لا يوجد في عقلك الفارغ سوى المال.
- اصمتي أنتِ ولا دخل لكِ.

خرجت والدة ماسة من غرفة العمليات إلى غرفة العناية المشددة بعد نجاح العملية في القلب لتغيير الصمام التاجي كانت فرحة هديل كبيرة والدها الذي ذرف دموعه من شدة الفرح وطلب من هديل الذهاب مع شقيقها إلى المنزل لتطمئن على ماسة وكاميليا ليبقى هو مع زوجته لحين خروجها من غرفة العناية المشددة.

وذهبت هديل مع شقيقها إلى المنزل حيث بقيت مع ماسة وكاميليا وزوجة عمها لأن ماسة تبلغ من العمر تسع سنوات وكاميليا سبع سنوات.

دخلت المنزل وجدت الطفلتان نائمتان بعد أن قامت زوجة العم بإطعامهم وهنا شعرت هديل أنها الأخت الكبيرة والأم البديلة لشقيقاتها وأنها ستحمل مسؤولية الاهتمام بهم لحين تحسن والدتها وخروجها من المشفى دخلت غرفة النوم ونظرت لهما بعمق وتأملت براءة الطفولة التي تشع منهما وقالت بينها وبين نفسها:

- جميلاتي أحبكن كثيراً.

خرجت إلى المطبخ لتقوم بأعمال المنزل لأنها ستعود مساءً إلى المشفى مع يامن لتعود زوجة عمها لتبقى مع ماسة وكاميليا.

وعندما حل المساء وبعد غروب الشمس ذهبت هديل مع يامن إلى المشفى وبقيت ماسة مع كاميليا في غرفتهم تدرسان ليحين وقت العشاء والنوم وعند خروج هديل من باب المنزل هرولت إليها ماسة وقالت لها.

- أين أمي يا هديل؟ وأبي لماذا لم يأتي إلى المنزل غابت الشمس والعصافير خلدت للنوم في أعشاشها.
- لا تقلقي يا صغيرتي سيأتي أبتاه بعد ساعتين ولكن لديه عمل مهم وسيتأخر قليلاً وأماه ستبقى قليلاً عند جدتك لأنها متعبة لن تتأخر هيا ادخلي غرفتك أنتِ وكاميليا وأكملا درسكما وإلى النوم لديكما مدرسة في الصباح الباكر هيا.
- وأنتِ لن تعودي.

- ماسة ماسة تسأليني كثيراً سأعود في الصباح الباكر سأذهب مع يامن إلى أمك لنطمئن على جدتك هيا إلى غرفتك تصبحين على خير.

نظرت ماسة لهديل نظرات حيرة ولم تقتنع كثيراً وقبلت هديل ماسة وكاميليا وخرجت من المنزل وعيناها تدمعان لأنها شعرت بعدم قناعة ماسة بكلامها.

- ماسة ذكية لم تصدق أن والدتها عند جدتك يا يامن.
- لا تهتمي طفلة ستلهو وتلعب وتنسى.
- لا أظن.... لا أظن...
- أسرعي أسرعي لأوصلك فأنا لدي موعد مهم مع أصدقائي.

خرجا من المنزل إلى المشفى ليوصل يامن شقيقته هديل وعندما وصلت هديل إلى المشفى شاهدت والدها حزين فقالت له:

- ماذا حصل يا والدي لما أنت حزين هل حصل مكروه لأمي....؟

- لا هي بخير يا بنيتي عمليتها نجحت ولكن قال لي الطبيب أنها لا تستطيع أن تفعل شيء عليها فقط أن ترتاح نفسياً وجسدياً والاهتمام بها كثيراً.
- وقال بانفعال... أين يامن لما هو ليس معك؟
- أوصلني إلى باب المشفى ورحل لديه موعد مهم مع أصدقائه.
- هذا الفتى لا يفهم ألا يستوعب أن لديه أم مريضة لما لم يؤجل موعده اللعين.
- قال إنه موعد عمل مهم جداً.
- كاذب لا تصدقي هو وأصدقائه يجتمعون للعب الورق فقط.
- هدء نفسك يا والدي هداه الله للصواب.
- آمين آمين..
- هيا لنطمئن على أمي – متى قالوا لك سترحل من المشفى....؟
- لا أعلم متى ولكن لا أعتقد إنها ستمكث هنا كثيراً.

- لأن ماسة وكاميليا يسألان عنها وأنا قلت لهما أنها في زيارة عند جدتي لأنها متعبة.
- أحسنتِ القول هيا هيا.

فذهب عبد الكريم وهديل لغرفة العناية المشددة وهناك علموا أنها تستيقظ وطلبت رؤية زوجها وأولادها وعلمت أن عمليتها نجحت وأنها نجت بأعجوبة إلهية.

ولكن السيد عبد الكريم أخبر الطبيب أن بناته في عمر صغير جداً ولا يريدهم أن يشاهدوا والدتهم بهذه الحالة مريضة وطلب منه أن يخرجها بسرعة إلى المنزل لكي تشعر بسعادة هناك مع أولادها وأنه سيجلب لها ممرضة تهتم بها لحين تحسنها من التعب ما بعد العملية.

وافق الطبيب أن يخرجها بعد رحيلها من غرفة العناية المشددة إلى منزلها وطلب منه أن تبقى براحة نفسية وعدم إخبارها بشيء مزعج وتناولها للدواء بأوقاته المحددة والتحاليل الشهرية لمعرفة

ماذا يتطور في حالتها الصحية دائماً وعدم إجهادها في أعمال المنزل اليومية.

وبعد خمسة أيام على مكوثها في المشفى خرجت والدة ماسة إلى المنزل وهي تبتسم لأنها اشتاقت جداً لطفلتيها الصغيرتان ماسة وكاميليا وتريد أن تراهم بشغف شديد فدخلت منزلها وهي مبتسمة ومعها زوجها وهديل ويامن فركضت ماسة وكاميليا واحتضنا والدتهما بحنان وهما سعيدتان جداً.

- كيف حالكما يا صغيرتان اشتقت لكما كثيراً.
- أنا بخير يا أمي واشتقت لكِ أنا أيضاً وكاميليا تبكي بالليل وتقول أمي أمي أبي كنتِ أطلتِ غيابكِ عند جدتي هل لا زالت متعبة.
- ماسة ماسة أنتٍ تسألين ماما كثيراً جدتك أصبحت بخير وها هي أمنا عادت إلينا.

تصمت الأم وتنظر لزوجها بحزن لأنها شعرت بألم في نفسها لأجل طفلتيها الصغيرتان.

- ماسة وكاميليا ماما متعبة قليلاً لن تشاغبان وستبقيان هادئتان.
- حاضر يا والدي هل ستلعب معنا في الحديقة.
- نعم.. هيا اذهبا وارتديا ثيابكم للخروج.

ذهبت ماسة وكاميليا إلى الغرفة وقاما بتغيير ملابسهم وهما في قمة الابتهاج والفرح.

مرت الأيام وماسة وكاميليا تكبران وتنضجان وفي داخل ماسة حزن لا تظهره لأحد لأن أمها لم تعد توقظها صباحاً إلى المدرسة وتحضنها كما الورد الذي يحتضن رائحته الندية ليطلقها صباحاً عند اشراقة الشمس لم تعد والدتها تهتم بها عندما تمرض وعندما تبكي وتفرح رغم اهتمام هديل بها ولكنها تريد من والدتها هذا الاهتمام لأن هديل تتعب فهي تطبخ وتنظف المنزل وتهتم بهما وبوالدها وشقيقها يامن لطالما شعرت ماسة أنها وحيدة حتى

علمت بمرض أمها فأصبحت هي تهتم بها وتأتي إلى غرفتها كل صباح وتقبلها في جبينها وتحضنها وتمشط لها شعرها وتتحدث إليها لأن والدة ماسة تعرضت بعد العملية لجلطات متتالية على الدماغ واللسان وأصبحت قليلة الكلام والحركة فأصبحت ماسة تشعر أن أمها ابنتها الصغيرة وعليها أن ترعاها كثيراً ففي داخل ماسة إصرار على أن والدتها ستتعافى وتعود كما كانت لتعود الأدوار كما كانت الام أم والابنة ابنة لتعود لها مشاعرها القديمة ويرحل الحرمان الذي افتقدته من والدتها والذي لن يعطيها إياه سوى من أنجبتها وهي " ماما ".

وذات يوم استيقظت صباحاً لتذهب إلى المدرسة وكانت هديل متعبة كثيراً لم تستطع أن تلبس ماسة وكاميليا وأن تمشط لهما شعرهما فذهبتا من دون أن يكونا مرتبتان بما يجب وهندامهم غير لائق ووصلتا المدرسة ودخلا باحتها ووقفت كل واحدة منهم في صفها لإلقاء تحية العلم الصباحية اليومية وإذا بالمعلمة بعد انتهاء

تحية العلم تقول لماسة بصوت مرتفع سبب لها بإحراج كبير وشعور مؤلم.

- ماسة تعالي إلي بسرعة.
- نعم آنسة.
- لماذا شعركِ منكوش وثيابك غير مكوية ومرتبة وأين حزامك المدرسي.

صمتت ماسة ولم تتحدث بشيء ولكن عيناها قالتا الجواب لأنها ذرفت منهما دمعتين ولكنها صرخت بقوة بوجه المدرسة وقالت لها:

- والدتي مريضة مريضة وشقيقتي الكبيرة كانت متعبة ولم تستطع أن تهتم بنا أنا وكاميليا هل جربتِ هذا الشعور أن تفقدي أمكِ وهي على قيد الحياة.

صمتت المدرسة لما سمعته من ماسة والدهشة على وجهها ولم تستطع أن تجاوب بكلمة واحدة وندمت لأنها قامت بسؤالها لأن

ماسة لم تتوقف بعدها عن البكاء فاحتضنتها وتحدثت بكلام لطيف وقالت لها:

- اعتبريني أمكِ يا ماسة الأم التي في مدرستكِ هنا هي أنا.

توقفت ماسة عن البكاء وفرحت من كلام مدرستها التي رأت ماسة فيها حنان أمها للحظات قليلة لامس قلبها الصغير الذي يصرخ كل يوم أمي أمي عودي كما كنتِ لأنني أحتاج إليكِ بقربي لتضعين يداكِ على شعري وتهمسين لي أحبك ماسة عادت ماسة إلى المنزل وأخبرت هديل بما حصل وقالت لها:

- متى تتعافى أمي يا هديل.
- ستتعافى قريباً وتعود إلينا كما كانت.
- أريد أن أسمع صوتها أريدها أن تغمرني وتذهب معنا إلى الحديقة والسوق.
- بإذن الله يا ماسة سيحصل ادعي لها واهتمي بها فقط وثابري في دراستك لكي تكون سعيدة وفخورة بكِ دائماً.

- أجل ستعود كما كانت وأنا سأجعل من روحي حارساً لها.

أصبحت ماسة في الثالث الاعدادي تتفتح للدنيا لتبدأ معركتها مع الحياة التي لم تعلم ماذا ...؟ تخبأ لها من مآسي وخيبات وصدمات جارحة ومسؤوليات ستتحملها وهي أكبر من عمرها وخاصة بعدما شعرت أنها ستخسر شقيقتها هديل التي قامت برعايتها وهي طفلة لأن هديل تقدم لخطبتها شاب وهي تريده وستسافر معه إلى بلد آخر لأنه يعمل خارج البلاد حتى هديل لم تكن سعيدة بفراق عائلتها ولكن هذه أقدار الله وقدره وما كتبه لكل البشر زواج وموت وفرح وحزن وفراق ولكل منا مصير وعليه أن يواجهه وصبر وإيمان بمن خلق الكون.

- يوم زفاف هديل كان يوم أسود على ماسة لأنها ستكون الأم والأخت البديلة عن هديل وهي في عمر الخامسة عشر كغصن

أخضر يافع مقبل على حمل ثماره لأول مرة برعم يتمايل مع الرياح شرقاً وجنوباً ورقة صغيرة تحتمي من أشعة الشمس تحت الظل لتحمي نفسها من حرارتها وهل....؟

ستصمد طويلاً في معركة شرسة مع وحوش بشرية وغزلان وديعة في غابة القانون فيها الضعيف يُكسر والقوي ينتصر حتى لو كان ليس على حق.

تزوجت هديل وسافرت مع زوجها وبقيت ماسة تلملم أحلامها الضائعة بين طريق دامس ظلامه يقف على حافة هاوية....!